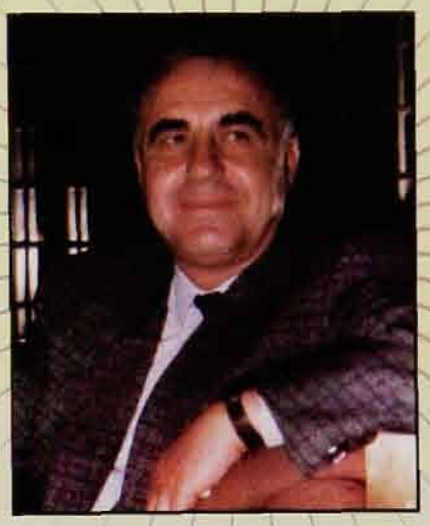

عبداللطيف الأرناؤوط*

العولمة.. وثقافة الطفل

بعد ثورة المعلوماتية التي تفجرت في عصرنا وتفنيات التواصل والاتصال لم يعد ثمة مجال للحديث عن أدب أطفال أو ثقافة للطفل العربي تعتمد الكلمة المطبوعة أو الرواية الشفوية التي ينتقل بها التراث للأجيال، ولم تعد أجهزة الإعلام والثقافة الوطنية قادرة على السيطرة أو التحكم بما يقدم الطفل عبر الأجهزة من مواد مستوردة تتجاوز حدود الزمان والمكان، وتضع الطفل أمام نمط من التلقيد يعتمد على جاذبية الصورة، وتقنية العرض، وينطلق من دراسات عميقة لنفسية الطفل واهتماماته. ومن وراء ذلك كله أهداف مشبوهة يخطط لها عالمياً بهدف سلخ الطفل العربي عن هويته وفصله عن تراثه وصبه في إطار عولمة لا تتوازى شعوب العالم في التخطيط لها.

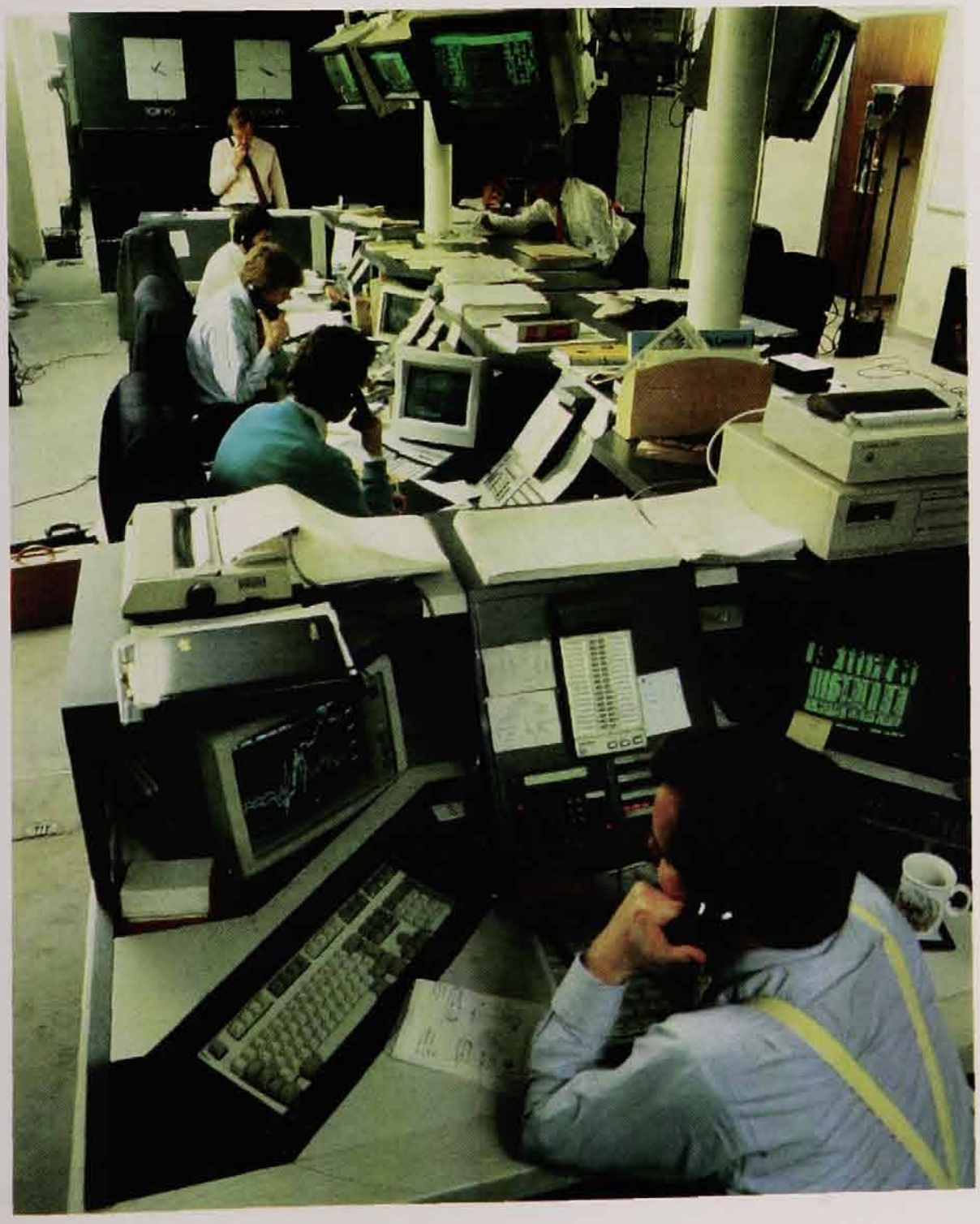

□ اتحاد الكتاب العرب ـ سوريا

إنها عولمة الليبرالية الغربية المتجسدة بحضارة العصر، وقيمها الفردية القائمة على الصراع في سبيل البقاء، وانتصار الأقوى بالمال أو العلم أو أدوات القمع المسخرة لإخضاع الشعوب.

كانت مسألة العولمة في أدب الطفل مدار دراسات ومناقشات جادة في مؤتمرات عدة، واحتلت حيزاً كبيراً من جلسات تلك المؤتمرات ومناقشاته وتوصياته على تفاوت في وجهات النظر بين الحاضرين والمناقشين فيما يجب أن يكون عليه الموقف العربي الإسلامي من الغزو الثقافي الكاسح الذي يهدد أطفالنا فكان المشاركون دائماً بين رافض أو مؤيد للإفادة من هذه التقنيات أو معتدل ذي نظرة توسطية.

ولنأخذ مثلاً مؤتمر الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب الذي انعقد ما بين ١٨ - ٢١/١٢/١٩٩٩م في دمشق حيث قدمت للمؤتمر دراسات جادة حول أدب الأطفال والاتجاهات المتصلة بثقافة الطفل.. والأساليب التي يجب أن نتبعها لصون الهوية الوطنية والقومية وتعزيزها في مواجهة العولمة.

في دراسة بعنوان (شعر الأطفال.. المعوقات والمستقبل) يذهب الأديب ميخائيل عيد إلى أن الجشع المادي وراء الربح يهدد الشعر بالانقراض كما يهدد الحضارات العريقة وإسهام الشعوب في الحضارة الراهنة، وقد أفلت الأمر من أصحاب النوايا الحسنة حتى أصبحت المثل العليا أشبه بالتهمة مثلما أصبحت مواجهة الاجتياح الحضاري ضرباً من المحال.

ومن المعروف أن الشعر أداة فعالة لتوجيه الإنسانية نحو القيم الخيرة، ولا بد من إعداد الوسائل الضرورية لبقائه لأنه ضرورة طبيعية حسب تعبير كروتشة، إن وجه الإنسان الناصع يتشوه اليوم كما تتلوث الضمائر ويفرض على سكان المعمورة نمطاً أحادياً مادياً وروحياً معادياً لروح الشعر والجمال، فقد حطمت النزعة الاستهلاكية المادية الجمال الروحي وأزاحته عن تطلعات إنسان العصر، والكبار عولموا هجومهم على العالم لتذويبه ومستقبل شعر الأطفال يواجه تحديات لكن ذلك لا يعني أن نتوقع ولا أن نشارك في الوجود الراهن، فلا بد من شعر مستقبلي يصلح ويهيئ الطفل للدخول في العصر الجديد.

ونحن ما نزال نعيش قبل عصرنا بعقود، هناك استثناءات ولكنها محدودة، وعلينا أن نبرر قيمنا الخالدة التي تصلح لكل عصر ولا نستبدل بها قيماً وافدة ضارة ، هناك شعر إنساني عالمي يمكن أن يعزز تطلعاتنا ولا يعارض قيمنا يمكن استيراده، ولا بد من دخول العصر، والإفادة من تقنياته على نحو إنساني ومن الملاحظ أن شعر الأطفال العربي اليوم لا يلتفت إلى قضايا العصر كغزو الفضاء والتلوث والمعلوماتية، وتتعمق الهاوية بسبب تكريس التفاهة والشعر الطفلي الرخيص في وسائل إعلامنا أو هبوطه في إطار الغنائية والتقليد دون التماس دروب جديدة فقد سئم الطفل العربي الحديث عن الصدق والصداقة والحث على العمل والأوامر والنواهي.

ولا بد من شعر يعكس قيمنا العربية بأساليب جديدة ورؤى ساحرة، فالمفهومات تترسخ في أذهان الأجيال وتتطور مع تطور المعرفة أم جمودها عند تصورات معينة فذلك يعني الموت والاجترار، ثم تأتي مسألة الإيصال وهي تعتمد على تقنية، والتقنية لا يجوز أن تسخر لابتزاز الطبيعة وتخريبها، وتسد على الشعراء باب الحلم والتغني بجمالها.

وشعر الأطفال أداة تربوية يجب أن يوليها الأدباء اهتمامهم، ولو كانوا يتعرضون لقسوة النظام القيمي الذي يحكم العصر، ويخنقهم ويسد أنفاسهم. كانت الدراسة أقرب إلى صيحة في مواجهة الخطر ولم تتناولمختلف المشكلات التي يواجهها الشعر وبخاصة دور النزعة المادية والقيم الاستهلاكية في إضعافه وتحجيمه وأثر الوسائل الحديثة في صرف أذهان الأجيال عن الإبداع فهم أمامها في موقف المتلقي فهي التي تحلم نيابة عنهم، وبلغ الأمر في الخطورة أن أصبح الحاسوب يقوم بدور الشاعر فيؤلف من جمل استودعها أشعاراً لا تمت إلى الإبداع بصلة، كما لم يقدم الباحث أي اقتراح لحل مشكلة الشعر.

ويتناول عبدو محمد في دراسة بعنوان (أدب الطفل التربوية وأنماطه في المناهج والمعلومات ووسائل الإعلام) وهي مصادر تشد وتجذب عقل الطفل دون تنسيق بينها أو وحدة هدف، ويحاول الباحث تحديد القيم التربوية الجمالية التي يمكن توجيه الطفل إليها فيلخص ما ورد عن هذه القيم في الأدبيات التربوية والثقافية..

وفي تقديري أن الحديث عن هذه القيم وتحديدها أمر مفيد للقائمين على شؤون الطفل لكن هذه القيم يمكن إبرازها وتعليمها خارج نطاق أدب الطفل فليس المهم أن نعرف القيم التي نريد بل الأهم أن يحسن أدباؤنا تقديمها للأطفال.

ويتعرض الباحث محمد قرانا في دراسته عن (الثقافة العلمية وانعكاساتها على أدب الأطفال) وهو يرى أن أدب الأطفال ومنها حكايات الجدات والثقافة الشعبية في مواجهة التحديات المعرفية والثورة التكنولوجية التي تدفع الدول النامية إلى مراجعة حساباتها والتحول من موقع المستهلك إلى المبدع وبخاصة في مجال التعليم الذي يفرض التطور تبديل تقنياته وأساليبه بعد اختراع وسائل الاتصال والحواسيب الحديثة إذ يجب أن تستغل هذه الوسائل لإيضاح قيمنا النبيلة إلى الأجيال وتعريف العالم بها على أن تظهر هذه القيم مسايرة لروح العصر دون اجتثاثها من الجذور إن التقنيات

الحديثة والحواسيب تختصر وقت طالب المعرفة، وتسهل له معرفة العالم والآخرين وتسرع التفاعل الثقافي وتختصر الجهد في الوصول إلى البيانات والحقائق، وهي أكثر مؤونة في تشكيل المعرفة وتحويلها وأقدر على الربط بين معطيات العلوم المختلفة والإحاطة بالدراسات المتنامية، وهي أمور تسهم في بناء طالب واع قادر على تقويم ما يقدم له وإصدار أحكام موضوعية ونلاحظ أن الباحث متفائل بمستقبل الشعر لإيمانه بأنه يخدم حاجات روحية في الإنسان لا يمكن للحضارة المادية أن تزيلها.

ثم يتحدث عن إسهام الوسائل الحديثة في تطوير أساليب عرض القصص والروايات بالاعتماد على الصور ومحاولة فتح أذهان الأطفال إلى احتمالات متنوعة في حبكات القصة أو الرواية، ليسهم الطفل بخياله في إكمالها، وهذا النمط يعرف بالقصة التركيبية. والواقع أن هذا الأسلوب مقصود، فالعبث بتراث الشعوب الإبداعي يهدف إلى طمس معالمه ومحوه، والاتصال بأبطال الرواية عبر الهاتف ومحاورتهم وتحوير النص ستكون نتيجة محو النص من ذهن الطفل وتشويهه، ومعاملته معاملة اللعبة التي يعبث بها الطفل وهكذا تزول الإسهامات المحلية ليحل محلها النموذج العالمي الاستهلاكي، ويتناول الباحث الخدمات التي تقدمها شبكة المعلومات العالمية لتسهيل ثقافة الطفل، ومحاولاته الحاسب الآلي تأليف شعر تجمع كلماته من مخزونه والدور الذي تقدمه الانترنت في مجال النقد الأدبي.

وهو نقل قد تسهل فيه الأجهزة الوصول إلى المراجع، لكنه يتجاوز المنطق حين يترك لهذه الأجهزة الآلية نفسها تحليل النص وفقاً لمعطيات تخزن فيها.

وقد تسهل فيه الأجهزة اليوم انتشار أدب الأطفال وطباعته وتعميمه، ولكن لا نقر الباحث إيمانه بقدرة العقل الآلي على تقديم شعر يتحقق فيه العمق وروح العصر ولا نقره أيضاً بأن الكتاب سوف يبلى ويحتل مكانته التي كان يحتلها قبل اختراع الأجهزة الالكترونية فإن الظواهر تشير إلى انحسار الكتاب والعزوف عن القراءة بعد احتلال الأجهزة الإلكترونية بسبب طابعها المريح.

وتبدو الكاتبة لينا كيلني أكثر اعتدالاً أمام أثر الثورة التكنولوجية في ثقافة الطفل ففي دراستها (الكتاب الإلكتروني ومستقبل الكتاب المطبوع) تتابع رحلة أدب الطفل من الرواية الشفوية المسموعة إلى الكلمة المكتوبة سواء كانت من التراث أم تسربت إلينا بحكم التفاعل الحضاري والترجمة إلى أن تصل بنا إلى ثورة التكنولوجيا والمعلومات التي أسهمت بإغناء الفكر البشري وتعميمه وتنويعه وخروجه عن النمطية بالمزج بين أكثر من وسيلة اتصال أو ما يسمى بالاتصال متعدد الوسائط ودور شبكة الانترنت في تسهيل نقل المعرفة وتجميعها في بؤرة واحدة وفي سياقات متنوعة.

وتشير الباحثة إلى فائدة هذه الأجهزة للطفل ولكنها تخاف من كون هذه الشبكة عالماً مفتوحاً لكل الإسهامات ومنفذاً لدس الأخطاء وتشويه الحقائق وتربية الطفل على قيم تنافي قيمنا العربية الإسلامية كالعنف والعدوان. إضافة إلى أثرها فيه كمتعلق لا يسهم في تحليل المعرفة أو تقويمها، وتعترف الباحثة بأن الكتاب الإلكتروني أصبح مفروضاً على أطفالنا.

ولا بد من وجود معلم يعدل رؤية ما يعرض على الطفل ويوجهه، والفرص مفتوحة أمام الشعوب للإسهام في هذه الثقافة الإنسانية، وتتساءل الباحثة عن خطر هذه الأجهزة على الطفل لأنها تعلمه الكسل والاستسلام إلى موادها الجاهزة واستغلال براءته ونقائه وتدعو إلى البدء في حل مشكلة الكتابة العربية لتكون أقدر على المشاركة في المعلوماتية وجمع التراث وتنقيحه ليعكس صورتنا الحضارية.

وترى الباحثة مريم خير بك في دراستها بعنوان (أدب الطفل بين التربية والمعلوماتية) ضرورة الربط بين الغزو الثقافي بأشكاله المختلفة وتنعى على مؤسساتنا إهمال الطفل العربي على الرغم من قسوة الظروف التي يمربها وأول المخاطر التي تهدد الطفل تأتي عن طريق التلفاز فغزته برامج الأطفال الأجنبية، وعجزت المواهب العربية عن تغطية حاجاته الطفولية فلا بد من طرح ثقافة قومية أمام الطفل العربي، واضحة الهوية، دون أن نقطع صلتنا بالمستورد الذي يجب إن يخضع للرقابة، أما الإذاعة فبرامجها للأطفال محدودة الأثر وكذلك مجلات الأطفال فهي محدودة ضعيفة الأثر مع غياب أثر المؤسسات وتشجيعها ويمكن أن يكون الكتاب التعليمي ذا أثر بالغ في توجيه الأطفال وكتب القصص أيضاً لا أنهما يخلوان من التشويق، وتبعد لغتهما عن مستوى الأطفال.

فإذا انتقلنا إلى الكمبيوتر نلاحظ أن أثره مازال محدوداً ولم يستطع مزاحمة الكتاب المطبوع حتى في بلاد الغرب والكمبيوتر سلاح خطير إذا لم يرتبط بشبكة معلومات عربية، إن الكتاب المطبوع في نظر الباحثة سيظل له خصوصيته ولن يتأثر بثورة المعلوماتية فإن الباحثة لم تعتمد دراسات وإحصاءات تربوية تشير إلى انحسار القراءة والعزوف عنها في مجتمعنا وهي ظاهرة تهدد الجيل الذي لا يمارس القراءة.

وأن البحث الذي خصص للكتابة عن العولمة في أدب الأطفال فصيلاً وإحاطة هو بحث الدكتور أحمد يوسف داود الذي يعرف العولمة مستنداً إلى آراء عدد من الباحثين ثم يتساءل عدة تساؤلات تقوده إلى خطر العولمة في شخصية الطفل العربي والفراغ في بنيته المعرفية.

وعلى الصعيد العربي يشير الباحث

إلى الانبهار بالحضارة الغربية وبعد المناهج عن تكوين عقل مبدع وهيمنة الإعلام العربي على اهتمام المواطن بدل الثقافة، ويترتب على الكاتب معرفة المشكلة الراهنة للطفل العربي وأثر التلفاز في الطفل لأنه يتعامل مع المرئي والمسموع وليس المقروء، وامتلاك ثقافة عميقة ورؤية في الحياة ومحاربة النزعة الاستهلاكية الرخيصة في تجارة أدب الطفل ببدائل تعرض نفسها عن طريق إنشاء قناة إرسال عربية للأطفال مدروسة ومن وجهة تنقذ الطفل من خطر البضاعة التجارية المستوردة له ويصمم البرامج في هذه الشبكة أدباء عرب موهوبون ومختصون بالتربية وعلم نفس الطفل.

ولا بد من تمويل هذه الشبكة لتنافس الرأسمال العالمي المثمر في هذا المجال، أما عن ثورة المعلوماتية فيستشهد الباحث بآراء علماء غربيين يرون أن تكنولوجيا المعلومات بحكم تجريدها ورفضها التعاون مع الأشياء والوسيطة التي تجسد المعنى الاجتماعي لعلاقات البشر ستقود في نهاية المطاف إلى عزلة الطفل وخوائه الاجتماعي وتضع الأطفال في مهب الريح، ولا يمكن إقامة ستار حديدي أمام التطور التكنولوجي وسيكون لهذا التطور أثره في تمكين أبناء الطبقة الفنية على التعامل مع المعطيات الجديدة في حين ينعزل الفقراء إضافة إلى تكوين إنسان لا يهتم لا بميوله الخاصة ولا يفكر فيما حوله وهذا يعني إلغاء هوية الطفل العربي وربطه بالعولمة، ولا خلاص من هذا الخطر إلاّ بالدخول إلى شبكة المعلومات العالمية وتزويدها بمعارف سليمة عن العرب وتاريخهم مع وضع برامج وطنية وقومية للطفل قبل أن يستفحل الخطر وتبتلعنا العولمة.

وتطرق الكاتب إبراهيم سند من أسرة أدباء البحرين إلى ثقافة الصورة والكتابة لوسائل الاتصال بجماهير الأطفال فيشير إلى أن معرفة مشكلات الطفل تبدأ من الأسرة ودورها ثم تحدث عن عزوف الأجيال عن القراءة لأسباب عديدة منها عزوف الكبار وهم قدوة الطفل وانصراف الطفل الى المرئي بدل المقروء وسوء طرائق تعليم القراءة وتخلفها ودعا الباحث إلى حسن اختيار المادة الثقافية للطفل واستقلال طاقات المرح والغناء والموسيقى في تثقيف الطفل وتوجيهه وهي محاولات قد تشد الطفل وتجنبه الانزلاق إلى مخاطر المواد الثقافية المستوردة وأهمها الأفلام الخاصة بالأطفال والتي تبرز الصراعات والعدوان.

وعالج الكاتب عبدالتواب يوسف من مصر موضوع مستقبل ثقافة الطفل بين الكتاب المطبوع والكتاب الالكتروني فحلل سحر الكتاب الالكتروني وجاذبيته للأطفال وتساءل فيما إذا كانت الكتاب الالكتروني والتعليم بالحاسوب سيحل مكان الكتاب المدرسي والقصصي المطبوع وخلص إلى أنه لا بد من مواكبة التقدم حتى في أدوات الكتاب ومروراً بالكتاب الالكتروني الذي يبدو أكثر عمقاً وجاذبية وأقدر على الإيصال من الكتاب التقليدي لبناء طفل قادر على التكيف مع المستقبل يملك مهارات التحليل والتجريد والتركيب والإبداع والتعاطف الإنساني والتثقف الذاتي.

أجل.. لقد بدل الكمبيوتر آفاقنا وطرائقنا في إيصال المعرفة وسينعكس ذلك على شكل الكتاب ومضمونه وأساليب عرضه وسينمي الحاسوب آفاق الطفل وخياله ليدخل باب الكشف والاختراع وأن سيادة المعلوماتية أمر محتوم ولا حيلة لنا في التحكم بها أو رفضها.

وقدم الأديب علي أحمد الديري من البحرين دراسة عن الثورة المعلوماتية والطفل العربي من حيث تحولات العقل من مرحلة المشافهة إلى الكتابة، فالمعلوماتية، فأشار إلى خصائص العقل الشفاهي الذي كان يلجأ إلى صب المعرفة بقوالب لحفظها للأجيال ونقلها عبر الزمن أما العقل فلا يعتمد على الذاكرة بل على التدوين ولم يستطع القضاء على المشافهة ولكل منهما نظام استرجاع خاص فالكتابة أضعفت العقل وسرعة الحضور ويسرت تثبيت المعرفة بدقة وتوسع أما المعلوماتية فهي نظام يملك القدرة على توظيف الكتابة إنه نظام يقوم على المبرمج وفرعه المكتوب ومهمتنا تنحصر في نقل الثقافة من الوسط الكتابي إلى الوسائط الالكترونية دون تغييرها وأن الدخول في المعلوماتية لن يكون باستيراد الأجهزة والبرامج بل بهدم الهوة الفاصلة بين التقنية والثقافة مع ضرورة صد ما تنتج وتحليله والمهم هو توجيه هذه المعلوماتية لتنمية قدرات التفكير لدى الطفل واستثارة إبداعه.

وعالج الباحث محمد الغزي من تونس موضوع هشاشه الطفل فتناول خطر أفلام الأطفال الكرتونية في تكوين مفاهيم الطفل ومدى تطابقها مع ما يحيط به مظهراً خطر الصورة في هذه الأفلام وهي نتاج عقلية غربية وتفكير ليبيرالي يتحدد في جذوه من الداروينية وفلسفة بقاء الأقوى، فالعولمة نظام سياسي يختفي وراء إقناع ثقافي لذا يجب الرد عليها بإجابة سياسية تستغرق كل مجالات الحياة ومن عناصرها ثقافة الطفل.

ويظل الكتاب المطبوع من الوسائل التي يمكن التركيز عليها في مواجهة هذا الغزو فالكتاب المطبوع أداة القراءة والقراءة تمنح القارئ قدرة على التخيل والحلم لا توفرما ثقافة الصورة وعلينا أن تتيح للطفل أن يتخيل ويحلم وألاّ يكون متلقياً. لنضع على دروب الإبداع بتفجير طاقاته ولا يتحقق ذلك إلاّ بالمشاركة الفعالة، فأدب هو الذي يبدعه الأطفال وليس الذي يكتب لهم نيابة عنهم..■